

إعداد:  
هشام المشاوي

## وقعت بين جيوش المرينيين وأفونسو العاشر

الحلقة  
15

# «الدونونية»... آخر انتصارات الأندلس



معركة الدونونية وقعت في سبتمبر 1276 (674 هـ) بين جيوش دولة المرينيين متحدة مع جيش الفقيه ابن الأحمر والتي انتصرت على قوات الملك القشتالي الفونسو العاشر. كان للمعركة تأثير كبير في تاريخ الأندلس الإسلامي، إذ أنها أوقفت زحف النصراري في الأراضي الإسلامية وقد أخرجت سقوط مملكة غرناطة لمدة تزيد عن قرنين.

التسمية عُرفت هذه المعركة بموقعة الدونونية نسبة إلى دون نونيو دي لارا قائد الجيش القشتالي.

لم يتبق في الأندلس في سنة 646 هـ 1248 م بلادا إسلامية غير غرناطة وما حولها فقط من القرى والمدن، والتي لا تمثل أكثر من 15% وهي تضم ثلاث ولايات متحدة هي: ولاية غرناطة، وولاية ملقة، وولاية المرية، ثلاث ولايات تقع تحت حكم ابن الأحمر الذي كان يحكمها باسم ملك قشتالة تبعاً لعهدتهم ولطبيعة متصلة في كينونتهم، ومع كون المعاهدة السابقة بين ابن الأحمر وملك قشتالة تقوم على أساس التعاون والتسالم والنصرة بين الفريقين، إلا أنه بين الحين والآخر كان النصراري القشتاليون بقيادة فرناندو الثالث من تبعه من ملوك النصراري يخونون العهد مع ابن الأحمر، فكانوا يتجهون على بعض المدن ويحتلوها.

## غرناطة وموعد مع الأجل المحتوم

كعادتهم ولطبيعة متصلة في كينونتهم، ومع كون المعاهدة السابقة بين ابن الأحمر وملك قشتالة تقوم على أساس التعاون والتسالم والنصرة بين الفريقين، إلا أنه بين الحين والآخر كان النصراري القشتاليون بقيادة فرناندو الثالث ومن تبعه من ملوك النصراري يخونون العهد مع ابن الأحمر، فكانوا يتجهون على بعض المدن ويحتلوها، وقد يحاول هو فلا يفلح، فلا يجد إلا أن يعاهدهم من جديد على أن يترك لهم حصناً أو حصنين أو مدينة أو مدينتين مقابل أن يتركوه حاكماً على بلاد غرناطة باسمهم، فلم تؤسس غرناطة على التقوى، بل أسسها ابن الأحمر على شفا جرف هار، معتماً على صليبي لا عهد له ولا أمان [وَأَكَلْنَا عَاهِدُوا عَهْدًا نُبَذَهُ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ]

كعادتهم ولطبيعة متصلة في كينونتهم، ومع كون المعاهدة السابقة بين ابن الأحمر وملك قشتالة تقوم على أساس التعاون والتسالم والنصرة بين الفريقين، إلا أنه بين الحين والآخر كان النصراري القشتاليون بقيادة فرناندو الثالث ومن تبعه من ملوك النصراري يتجهون على بعض المدن ويحتلوها، وقد يحاول هو فلا يفلح، فلا يجد إلا أن يعاهدهم من جديد على أن يترك لهم حصناً أو حصنين أو مدينة أو مدينتين مقابل أن يتركوه حاكماً على بلاد غرناطة باسمهم، فلم تؤسس غرناطة على التقوى، بل أسسها ابن الأحمر على شفا جرف هار، معتماً على صليبي لا عهد له ولا أمان [وَأَكَلْنَا عَاهِدُوا عَهْدًا نُبَذَهُ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ]



## ما قبل المعركة

لم يتبقى في الأندلس في سنة 646 هـ 1248 م بلادا إسلامية غير غرناطة وما حولها فقط من القرى والمدن، والتي لا تمثل أكثر من 15% وهي تضم ثلاث ولايات متحدة هي: ولاية غرناطة، وولاية ملقة، وولاية المرية، ثلاث ولايات تقع تحت حكم ابن الأحمر الذي كان يحكمها باسم ملك قشتالة تبعاً لعهدتهم ولطبيعة متصلة في كينونتهم، ومع كون المعاهدة السابقة بين ابن الأحمر وملك قشتالة تقوم على أساس التعاون والتسالم والنصرة بين الفريقين، إلا أنه بين الحين والآخر كان النصراري القشتاليون بقيادة فرناندو الثالث من تبعه من ملوك النصراري يخونون العهد مع ابن الأحمر، فكانوا يتجهون على بعض المدن ويحتلوها.

## الفتوحات بعد الموقعة

فما كان من الأخير إلا أن أخذ البلاد وضمها كلها إلى دولة المرينيين، وما هو الآن يعقوب المنصور المريني يبدأ بمدنيته طريف والمرية، إن في التاريخ لبعرة، ففكر عازماً على أن يقف حائلاً وسداً منيعاً حتى لا تُضم بلاد الأندلس إلى دولة بني ماريين.

ويا لهول هذا الفكر الذي كان عليه ذلك الرجل الذي لُقّب بالفقيه الذي ما هو بفقيه، فماذا يفعل إذن لكي يمنع ما تكرر في الماضي ويمنع ما جال بخاطرهم؟ بنظرة واقعية وجد أنه ليست له طاقة بيقوع بن منصور المريني، ليست له ولا لشعبه ولا لجيشه ولا لحصونه طاقة به، فماذا يفعل؟! ما كان من محمد ابن الأحمر الفقيه إلا أن أقدم على عمل لم يتخيله أحد من المسلمين، ما كان منه إلا أن ذهب إلى ملك قشتالة واستعان به في طرد يعقوب بن منصور المريني من جزيرة طريف، يذهب إلى ملك قشتالة بعد أن كان قد انتصر عليه هو والمنصور المريني في موقعة الدونونية وما تلاها في سنة 677 هـ 1279 م من فتح إشبيلية وجيان وقرطبة، يذهب إلى الذي هو عدو لهما (لابن الأحمر والمنصور المريني) ويستعين به على طرد المريني من جزيرة طريف.

وعلى موعد مع الزمن يأتي ملك قشتالة بجيشه وأساطيله ويحاصر طريف من ناحيتين، فتأخذه بنقذ عليه ابن الأحمر الفقيه، والأخرى يقف عليها ملك قشتالة، وما إن يسمع بذلك المنصور المريني حتى يعود من جديد إلى جزيرة طريف، وعلى الفور يجهز الجيوش ويعد العدة، ثم يدخل المعركة بفرقته الكبيرة مع النصراري هناك في سنة 677 هـ 1279 م فينتصر يعقوب المنصور المريني على النصراري، ويفرون من أمامه فراراً إلى الشمال، ويجد ابن الأحمر نفسه في مواجهة مع يعقوب المنصور المريني.



فعله حاكم المرية فاجوس في نفسه خيفة ابن الأحمر، وقال: إن في التاريخ لبعرة، وهو يقصد بهذا أنه حينما استعان المعتد على الله ابن عبد من ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب، هنا نظر محمد بن الأحمر الفقيه إلى ما

بعد موقعة الدونونية انقسم جيش المسلمين إلى نصفين، توجه النصف الأول إلى جيان وكان على رأسه ابن الأحمر، ففتح جيان وانتصر عليهم، وتوجه النصف الآخر وعلى رأسه المنصور المريني إلى إشبيلية، فإذا به يحرر إشبيلية ويصالح أهلها على الجزية. وإنه والله لأمر عجب هذا، أمر هؤلاء الخمسة آلاف رجل، والذين يذهب بهم المنصور المريني ويحاصر إشبيلية، فيحررها ويصالح أهلها على الجزية، تماماً كما قال صلى الله عليه وسلم: نصرت بالرعب مسيرة شهر. فكان هذا مثال حي على صلاح الرجال وصلاح الجيوش.

وبعد ثلاث سنوات من هذه الموقعة، وفي سنة 677 هـ 1279 م ينتفض أهل إشبيلية فيذهب إليهم من جديد يعقوب المريني، ومن جديد وبعد حصار فترة من الزمن يصالحوه على الجزية، ثم يتجه بعد ذلك إلى قرطبة ويحاصرها، فترضخ له أيضاً على الجزية. أمر والله في غاية الغرابة والعجب، يحرر قرطبة وجيان وإشبيلية وقوام جيشه لا يتعدى الخمسة آلاف مقاتل! وإنه ليستحق وفتات وفتات، وإن كان هذا ليس بغريب في التاريخ الإسلامي.

ابن حاكم المرية وصورة سامية ومحمد بن الأحمر الفقيه والخيانة العظمى في أثناء رجوع يعقوب المريني يموت حاكم المرية (من ضمن الولايات الثلاث في منطقة غرناطة، والأخرى إناهما ولاية ملقة وولاية غرناطة)، ومن بعده يتولى عليها ابنه وكان شاباً فتياً، وقد أعجب بأفعال يعقوب المريني وانتصاراته المتعددة إعجاباً كبيراً، فعرض عليه حكم المرية بدلا منه، استجاب المنصور المريني لطلبه، فخلف عليها قوة صغيرة من المسلمين يبلغ قوامها ثلاثة آلاف رجل، ثم استجلب ثلاثة آلاف آخرين من بلاد المغرب،

## الطريق إلى «الدونونية»



منصرفاً من فتح سجلماسة آخر المعال المربية التي كانت خارج سلطانه، و لم يكن أمر البث في قضية التحالف مع بني الأحمر ضد عدوهم "دون دونيو" سهلاً هيناً، مجموعة من الاعتبارات، فالمنصور المريني يواجه خطر الغارات التي يقودها يغمر اسن صاحب تلمسان من جهة الشرق بين الفينة والأخرى ثم إن الصف الإسلامي نفسه بالأندلس لم يكن موحداً فابن الأحمر كان في صراع دائم مع ابن شقيلولة صاحب مالقة، ولا يلبث هذا بالنظر إلى الخلاف المستحکم بينه وبين ابن الأحمر أن يكون يداً واحدة مع دون دونيو على المسلمين إذا جاز المنصور وجيشه لنصرة الأندلس، غير أن كل هذه الاعتبارات استتھاوى أمام رغبة يعقوب المنصور المريني في العبور إلى الأندلس وتخليصها من أيادي العابئين فذاك كان حلمه قبل أن يصبح ملكاً للمغرب وقد تأجل الحلم إلى حين بسبب الاضطرابات التي عاشها المغرب قبيل توطيد أركان الدولة المرينية.